مُحَمَّد شَفِيق غُرْبَال

من رُوَّاد المدرسة الأكاديمية الوطنيَّة

أ. د. أحمد زكريا الشِّلق
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة عين شمس

obeikan.com

beikan.com

شـهدت حركة كتابة التاريخ في مصر في العقود الأولى من القرن العشرين مدرسـة وطنية مصريـة "أكاديمية" لكتابة التاريخ المصرى الحديث والمعاصر بدأت تبرز وتتشـكل ملامحها فى أعقاب ثورة مصر الوطنية عام ١٩١٩ أي أنها ارتبطت بتطور الحركة الوطنية التى واجهت النفوذ الاسـتعمارى البريطانى، كما أنهـا ارتبطت أيضًا بمعركة تمصير الجامعـة المصرية، خاصة بعد ضمهـا إلى وزارة المعارف عام ١٩٢٥، تلك المعركة التى سـعت لإحلال الأسـاتذة المصريين محل الأساتذة الأجانب الذين كانت غالبيتهم من الإنجليز والفرنسيين، وحينذاك برزت أسماء لطفى السـيد وطه حسـين وسليم حسن ومحمد كامل مرسى ومصطفى عبد الرازق، كما برزت أسماء المؤرخـين المتخصصـين فى تاريخ مـصر الحديث والمعـاصر وفى طليعتهم محمـد رفعت ومحمد صبرى وشفيق غربال .

وفيمـا بتصل بمؤرخي مصر الحديثة فقد كان الأسـتاذ محمد رفعـت بداية لجيل من المؤرخين الأكاديميين عندما ابتعث إلى بريطانيا ليدرس فى ليفربول ويعود منها بدرجة الماجستير فى نهاية الحرب العالمية الأولى ثم يلعب دورًا مهمًّا فى تعريب وتأليف الكثير من الكتب التاريخية لوزارة المعارف، يليه الدكتور محمد صبرى الذى أعد دراسته المهمة عن ثورة ١٩١٩ التى نشرها بالفرنسية وقت اشـتعال الثورة ليثبت أنها ثورة وطنية عامة، ثم أعقبها بدراسـة عن نشـأة الروح القومية الـتى حـاز بها درجة الدكتوراة من جامعة السـوربون عام ١٩٢٤ ليصبـح فى طليعة هذا الجيل من المؤرخين الوطنيين المحترفين، الذين مارسوا الكتابة التاريخية استنادًا إلى المنهج العلمى وقواعده، وثالث فرسان هذه الكوكبة كان الأستاذ محمد شفيق غربال تلميذ المؤرخ البريطانى الكبير أرنولد توينبى، الذى أعد دراسته للماجستير عن «بداية المسألة المصرية وظهور محمد على» بجامعة لندن عام ١٩٢٤، وأصبح أول مصرى تولى وظيفة أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة المصرية. ومن خارج الجامعة ظهر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى الذى وضع مؤلفاته المعروفة عن تاريخ الحركة القومية المصرية بين عامى ١٩٢٩ – ١٩٥٩ .

نحن إذن فى أعقاب ثورة ١٩١٩ أمام جيل جديد من المؤرخين ممن درسـوا خارج مصر وقدموا دراسـاتهم، منطلقين من شعور قومى راسخ، مستندين إلى أسس المنهج العلمى الحديث ليسهموا

Obeikan.com

فى نهضة الكتابة التاريخية المصرية، سـواء داخل الجامعة أو خارجها، مشاركين فى إعادة تشكيل الحياة الفكرية فى مصر، حين نقلوا إليها طرائق البحث العلمى التى عرفها العالم الغربى المتطور بعـد أن هضموهـا وتمثلوهـا وطبقوها عند تناولهم تاريـخ مصر وأمتهم العربية الإسـلامية، إنه جيـل شـكل نقلة فى حركة التفكـير التاريخى فى مصر، ابتعدت بها عن المنهج الكلاسـيكى الذى درج عليه كتاب السـير والحوليات والمغازى والخطط والآثار والتراجم، ورسَّخت أسس الكتابة العلمية للتاريخ.

محمد شفيق غربال:

ولد محمد شفيق غربال بالإسكندرية في يناير عام ١٨٩٤ فى حى يحمل اسم عائلته غربال وتوفى في أكتوبر ١٩٦١، وكان قد واصل تعليمه الابتدائي في هذا الحي، ثم واصل تعليمه الثانوي بمدرسة رأس التـين، والتحق بعدها بمدرسـة المعلمين العليا بالقاهرة، تلك المدرسـة التي خرجت لمصر عددًا من رواد النهضة الأدبية والعلمية، منهم الدكتور أحمد زكي وإبراهيم المازني والشـاعر عبد الرحمن شـكري ومحمد فريد أبو حديد وعبد الحميد العبادي وغيرهم.. وقد أتمَّ دراسـته بها عام ١٩١٥ ليحصل على بعثة حكومية لدراسة المواد الاجتماعية والتاريخ فى جامعة ليـفربول بإنجلترا، حيـث حـاز درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف عام ١٩١٩، وعاد إلى مصر ليعمل مدرسًـا بالتعليم الثانـوى بالإسـكندرية لنحـو ثلاث سـنوات، ابتعث بعدهـا إلى إنجلترا مرة أخرى لاسـتكمال دراسته العليا، فالتحق بمدرسة الدراسات التاريخية التابعة لجامعة لندن.

وفى جامعـة لندن التقى بالمؤرخ الكبير "أرنولد توينـبى" الذى أعجب بكفاءته فأشرف على رسـالته التى نال بها درجة الماجسـتير عام ١٩٢٤ فى موضـوع عنوانـه «بدايـات المسـألة المصرية وصعود محمـد عـلى» "The Beginnings of The Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali" الـتى نـشرت فى لندن عام ١٩٢٨ ولم يقـدر لها أن تترجم إلى العربية رغم أهميتهـا، ليس فقط لأنها أهم أعماله المبكرة، ولكـن لأنها كانت من الكتابات الرائدة الموثقة التى عالجت فترة مهمة من تاريخ مصر هى الفترة الواقعة ما بين حملة بونابرت عام ١٧٩٨ وصلح

بوخارست بين روسيا والدولة العثمانية عام ١٨١٢، فربطت الدراسة بين أحداث مصر والموقف الدولي، كما ربطتها بالمسألة الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية. وقد أهدى غربال رسالته إلى توينبي باعتباره « معلمًا عظيمًا وأستاذًا ملهمًا ».

بعد أن نال غربال درجة الماچستير لم يُقَدَّر له أن يتم دراسته لمرحلة الدكتوراه، حيث انتهت مدة بعثته، فعاد إلى مصر عام ١٩٢٥ ليعين مدرسًا للتاريخ بمدرسة المعلمين العليا حتى عام ١٩٢٩ عندما نقل أستاذًا مساعدًا للتاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية، في الوقت الذييكان فيه الأساتذة الأجانب يحتلون معظم كراسى الأستاذية في التاريخ الحديث خلفًا للمؤرخ الإنجليزي « آرثر جرانت » ليصبح أول مصري يتولى هذا المنصب الرفيع، ثم لم يلبث أن انتخب عميدًا لكلية الآداب عام ١٩٣٩ خلفًا للدكتور طه حسين، لكنه سرعان ما نقل إلى وزارة المعارف بعد نحو عام، ليعمل فى خدمة التربية والتعليم كوكيل مساعد للوزارة حتى عام ١٩٤٢، حين أعادته وزارة النحاس باشا للعمل بالجامعة مرة أخرى لمدة ثلاث سنوات، عاد بعدها مستشارًا لوزارة المعارف، فوكيلًا لها، ثم نقل وكيلًا إلى وزارة الشئون الاجتماعية لفترة قصيرة، وإن حرص على أن يظل أستاذًا غير متفرغ بالجامعة حتى بلغ السن القانونية عام ١٩٥٤. وكان من الواضح أن حفاظه على استقلاليته وعدم تورطه في الحياة الحزبية - بالرغم من ميله المعروف إلى حزب السعديين خصوم الوفد - كان ذلك وراء كثرة تنقله ما بين الجامعة ووزارة المعارف.

ومن المعروف أن غربال أثناء عمله بوزارة المعارف لم يأل جهدًا فى حركة التعريب والتمصير للمقررات التاريخية، كما قام بعدد من الإنجازات العلمية المهمة، حين ساهم في تأسيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٤٥ وأصبح نائبًا لرئيسها فرئيسًا لها عام ١٩٥٦. وفي العام نفسه اختارته جامعة الدول العربية رئيسًا لمعهد البحوث والدراسات العربية التابع لها، كما تولى رئاسة قسم الدراسات التاريخية به، خلفًا للأستاذ قسطنطين زريق، وقد اختار صفوة من العلماء ليحاضروا فى المعهد، ودرس لجيل من المؤرخين العرب الذين ترأسوا أقسام التاريخ بالجامعات العربية.

وكان غربال عضوًا نشطًا في جمعية الآثار القبطية المصرية، والجمعية الجغرافية المصرية، والمجمع العلمى المصرى، ومجمع اللغة العربية، كما كان عضوًا مؤسسًا فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، والمجلس الأعلى للآثار، وقد مثل مصر فى عدد من المؤتمرات التاريخية العالمية، وانتخب عضوًا فى المجلس التنفيذى لليونسكو ١٩٤٦- ١٩٥٠ ممثلًا للشرق الأوسط.

وقد كرَّمته الدولة فمنحته جائزتها التقديرية فى العلوم الاجتماعية عندما رشحته جامعة عين شمس عام ١٩٦٠ لنيلها، أي قبل وفاته بنحو عام، وكان قد دعا أستاذه توينبي إلى مصر لقضاء عطلة الشتاء، لكن القدَر لم يمهله فتوفي في أكتوبر عام ١٩٦١ بعد مرض قصير، فرثاه أستاذه بمقال في جريدة «التيمز» رثاء علميًا رفيعًا فور علمه بوفاته، وعندما جاء إلى مصر شارك في حفل تأبينه بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

مؤلفاته وآثاره :

لم يترك غربال مؤلفات كثيرة، رغم أنه عاش مؤرخًا ومات مؤرخًا، لقد تعرض لما تعرض له أمثاله من مناصب قيادية تسعى إليه ولا يسعى إليها، ولكنه كان يأخذ ذلك بشيء من الرفق، ولم ينس أو يتناسى جذوة المؤرخ الكامنة فيه. لقد كان مؤمنًا بأن تعليم ومحاورة تلاميذه أكثر أهمية من تأليف الكتب، فأصبح أبرز تلاميذه أعلامًا في المدرسة التاريخية الحديثة وهم : أحمد عزت عبد الكريم ، وعبد العزيز الشناوي ، ومحمد رفعت رمضان ، وأحمد الحتة ، وحسن عثمان ، وعلي الجريتلي ، ومصطفى عفيفي ، وأبو الفتوح رضوان ، وإبراهيم عبده ، وغيرهم.

ويُعَدُّ شفيق غربال أبرز روّاد المدرسة العلمية الحديثة لكتابة تاريخ مصر الحديث والمعاصر، تلك المدرسة التي برز منها الدكتور محمد صبري «السوربوني» والأستاذ محمد رفعت، ممن تلقوا دراساتهم العليا فى أوروبا خلال العشرينيات وعادوا ليعملوا بالجامعة المصرية وليؤسسوا جيلًا من المؤرخين الأكاديميين، وإن كانوا قد تأثروا بالفكر الليبرالي وما يرتبط به من تمجيد لدور الفرد ودور الصفوة أكثر من تأثرهم بالمدرسة الاجتماعية التي كانت قد برزت في حقل الدراسات التاريخية منذ أوائل القرن العشرين.

obeikan.com

وتتمثل أهمية شفيق غربال في حركة التفكير التاريخي في مصر في أنه يمثل نقلة لها وزنها، وفي أنه ترك انطباعات حية في تفكير ونهج من تتلمذوا عليه، لقد كان يمثل في حد ذاته - وفقًا لما قاله عنه الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى - ثورة في المنهج التاريخي في المشرق العربي، فهو يتميز بذهن ذكي غني بشتى المعلومات، وقدرة على التركيز والتلخيص وعلى التحليل و التركيب إلى جنوح للتعميق المتوغل إلى واقعية ساطعة ودقة في النقد. لقد كان غربال بعيدًا كل البعد عن المنهج الكلاسيكي الذي درج عليه كتاب السير والتواريخ والمغازي والخطط والآثار والتراجم في العالم الإسلامي: سند دراساته بتفهمه لطبيعة عمله ومدارسه في الشرق والغرب، وطعَّمه بشيء من التذوق الأدبي - الغني، مع توسيع لقاعدة المعرفة التاريخية بالأدب والفلسفة وعلوم النفس والاجتماع.

أما الدراسات والكتب التي خلفها غربال: فإلى جانب رسالته عن المسألة المصرية وصعود محمد علي والمنشورة بالإنجليزية سنة ١٩٢٨ نشر دراسته عن «الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١» وذلك عام ١٩٣٢ ثم أعقبها بتحقيقه ودراسته لمخطوطة «ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسين أفندي الرزنامجي» التي نشرها عام ١٩٣٦ تحت عنوان «مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨-١٨٠١».

وفي عام ١٩٤٤ نشر غربال كتابه صغير الحجم عظيم الفائدة «محمد علي الكبير» الذي قدَّم فيه دراسة عميقة لأحوال المجتمع المصري في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، مع تقصٍ دقيق لما طرأ عليه من تغييرات كبيرة خلال هذه الفترة، لم يجعل محمد علي شخصية تتحرك في الزمان والمكان، ولكن جعله محور لدراسات تبدأ بمصر العثمانية ثم الحملة الفرنسية، وتنتقل إلى أوربا والدولة العثمانية، ثم إلى أحوال المجتمع المصري كما تسلمه محمد علي، ثم تحول هذا المجتمع وفق ما أرتأته له مشيئة هذا الباشا، الذي استطاع إقامة سلطة مركزية تجمع كل القوى المتصارعة في إطار واحد والنهوض بحركة إصلاح وعمران واسعة في كل المجالات، معتمدًا على القوة والعلم والمال، وليس على القوة العسكرية وحدها، وإن أبدى غربال ميلًا نحو إنجازات محمد علي حَادَت به عن الموضوعية في بعض القضايا التي تناولها.

ومع بداية الخمسينيات انجذب شفيق غربال من دراسة القرن التاسع عشر إلى التاريخ المعاصر، فألف كتابه عن تاريخ المفاوضات المصرية - البريطانية، الجزء الأول، الذى تناول الفترة ١٨٨٢ - ١٩٣٦، ونشره عام ١٩٥٢ ولم يشأ الأستاذ أن يكتب جزءًا ثانيًا يصل به إلى عام ١٩٥٤ حيث وقعت اتفاقية الجلاء، ربما لقرب عهد المؤلف ومعاصرته للأحداث مما قد يبتعد به عن التجرد والموضوعية، لذلك ترك ذلك لتلاميذه لينجز أحدهم، وهو الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى الموضوع، عندما أصدر عام ١٩٦٨ كتابه «العلاقات المصرية - البريطانية ١٩٣٦ - ١٩٥٦».

وفى عام ١٩٥٧ ألقى غربال مجموعة من المحاضرات فى الإذاعة الأوروبية، نشرت فى أصلها الإنجليزى تحت عنوانThe Making of Modern Egypt ترجمها الأستاذ محمد رفعت ونشرت تحت عنوان «تكوين مصر» كشف فيها عن عشقه لمصر خلال عصورها جميعًا.. «مصر التى تسمو فوق هامات الحقب والعصور». وقد رصد فى محاضراته هذه موضوعات الاستمرار والتغير فى تاريخها، الحكومة والمجتمع، الإنسان والمجتمع، المدينة والريف في تاريخ مصر، مصر والعهد القديم، مصر الهللينية ومصر المسيحية، مصر والإسلام وأخيرًا مصر والغرب. وفى هذا العمل - كما يقول الدكتور محمد صابر عرب فى تقديمه لطبعة دار الكتب له عام ٢٠٠٨ - وضع غربال يده على مفاتيح الشخصية المصرية، سواء من حيث المنهج الذى استخدمه أو من حيث الموضوعات التى تناولها. تلك الشخصية التى صاغها المصريون منذ بداية تاريخهم الطويل، حيث أعادوا صياغة كل الثقافات التى مرت عليهم بما يتلاءم مع تلك الشخصية الحضارية التى أذابت ما - ومن وفد إليها ولم تذب فيهم. لقد كان غربال يرى أن «العملية التاريخية» هى نتاج تفاعل متواصل بين اختيارات واندفاعات وإنجازات «الجموع»وبين إرادات «أفراد» بعينهم يصبحون رموزًا أو قادة أو زعماء وصفوة بفضل إبداعهم لأنواع جديدة من الحلول للتحديات القائمة أو المستجدة أمام المجتمع.

***

وكان آخر ما نُشر لغربال كتاب «من زاوية القاهرة» الذى ضم مجموعة من أحاديثه الإذاعية الأخيرة قبيل وفاته، فقد شاءت المراقبة الثقافية بالإذاعة المصرية - التي دأبت على نشر مختارات من أحاديث كبار الكتاب والمفكرين - أن تنشر هذه المجموعة التى كان غربال قد اختار عنوانها قبل وفاته، ذلك العنوان الدال الذى يشير إلى توسط مصر العالم العربي جغرافيًا، فهى المرآة الصادقة لظاهرة عربية عامة، ظاهرة خلاصتها تركيب عجيب بين العناصر الأصيلة والعناصر الوافدة ، فمن هذه الزاوية أطل غربال على عدد من رواد الفكر الإنسانى ممن أضاءوا للبشرية سبل الخير والحق والجمال، منذ سقراط حتى الأفغانى. وقد تناولت الأحاديث ما يتصل بالعرب وتاريخهم، فجاءت ردًّا علميًّا رصينًا على ما يُوجَّه للعرب من افتراءات، وما يُلصق بتاريخهم من أكاذيب وأضاليل للحط من شأنهم ومكانتهم فى التاريخ، فجعل الأستاذ يبرز كيف أضاف العديد من المفكرين العرب إلى الحضارة الإنسانية وتراثها الأخلاقي والعلمي إسهامات شتى.

ومما يُذكر لشفيق غربال أنه أشرف على تحرير «الموسوعة العربية الميسرة» التي أصدرتها مؤسسة فرانكلين، كما ترجم كتاب كارل بيكر عن «المدينة الفاضلة»، فضلًا عن مراجعته وتقديمه لعدد من المؤلفات التاريخية والأدبية المترجمة عن اللغة الإنجليزية.

وفيما يتعلق بموقف غربال من قضية تفسير التاريخ، فقد كان يرى أن من الإسراف وضع قانون ثابت يفسر حركة المجتمعات البشرية التي هي المادة الحية للتاريخ بمعناه الواسع، فالإنسان ليس آلة صماء يسهل التحكم فيها، فاختلف بذلك عن أستاذه «توينبي» الذي بنى دراسته للتاريخ على قانون ثابت يقوم على التحدي والاستجابة، ذلك القانون الذي لقي نقدًا رغم قيمة الجهد الكبير الذي قام به توينبي.

لقد كان غربال مدركًا لذلك، فلم يشأ أن يخضع لفلسفة تاريخية معينة، وجعل يأخذ من كل تفسير بقدر طبقًا للملابسات التي تحيط بموضوعه، وحيثما تصادفه قضية كبرى من قضايا التطور الاجتماعي، نجده يستشهد بآراء كبار المفكرين التي قد تفسر الزوايا المختلفة لهذه

القضية، دون أن يربط نفسه كليًّا بهذا أو بذاك.

لقد كان غربال دون شك على علم وثيق بأهم المناهج التاريخية وبالاتجاهات المختلفة لكبار المفكرين، لكن طبيعته السمحة واتساع أفقه وإيمانه الواضح بحرية الإنسان، جعله يتحرز من الانتماء لمدرسة معينة في تفسير التاريخ.

ذلكم هو محمد شفيق غربال، المؤرخ الأديب، والمفكر الوطني، أحد المؤسسين الرواد لنهضة الكتابة العلمية لتاريخ مصر المعاصرة خلال القرن العشرين.

⊙⊙⊙

obeikan.com